رسوم الفطر والأضحى
فى عهد الدولة الفاطمية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدولة الفاطمية فى مصر دولة البهاء والبذخ والترف فى الحياة العامة وفى الحياة الخاصة ؛ وكانت مواكب الخلافة الفاطمية ورسومها الفخمة دائماً مثار الروعة والاجلال ، وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة مثار البهجة والفرح العام ؛ وما زالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل فى كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية ؛ فاذا رأيت بعض هذه الأعياد والمواسم يجنح إلى نوع من الفخامة ، وإذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء ، فانما ذلك يرجع فى الأغلب إلى أثر الدولة الفاطمية فى بث هذه الروح الباذخة البهجة إلى كثير من نواحى الحياة العامة والخاصة فى مصر الاسلامية

وربما كان من الشائق المتع ، وقد تضى المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها عيد الأضحى المبارك ، أن نقف على طرف من الرسوم والتقاليد التى كانت تجرى عليها الخلافة الفاطمية فى الاحتفاء بهذا العيد الاسلامى الجامع ؛ وقد كان للخلافة الفاطمية أعيادها ومواسمها الدينية الخاصة ، إلى جانب العيدين الاسلاميين الرئيسيين ، وهما عيد الفطر وعيد الأضحى ؛ وكانت تحتفى بهما فى حفلات ومظاهر رسمية رائعة ؛ وكان موكب العيد من أعظم مواكب الخلافة الفاطمية ؛ ففى ليلة عيد الفطر كان يعقد فى القيل بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، وتنثر عليه أنواع الفطائر والحلوى الشهية مما أعد فى دار الفطرة الخلافية ؛ فاذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والايوان على مصاريعها ، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخلافى وتخاطفوا ما عليه بحضور الخليفة ووزرائه ؛ وحينما تبزغ الشمس يركب الخليفة فى موكبه إلى الصلاة ويخرج من باب العيد إلى المصلى ؛ وقد انتهت إلينا نحن هذه المواكب الفاطمية من أقوال المؤرخين المعاصرين صور تبهرنا بروعتها وجمالها ؛ ونحن نحيل القارئ على تلك الفصول الشائقة البديعة التى ينقلها إلينا المقريزى عن هذه المواكب الخلافية الرائعة [1] ونكتفى بأن ننقل اليه هذه الصورة الموجزة من أقوال المسبحى مؤرخ العصر الأول من الدولة الفاطمية ، قال :

« وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والرزيية والأخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب . وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر ، والمروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة ، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف » [2]

فاذا عاد الخليفة من الصلاة كان ثمة سماط آخر أبهى وأروع وهو السماط الثانى لعيد الفطر ؛ فيجلس الخليفة فى مجلسه وأمامه مائدة من فضة يقال لها المدورة وعليها أوانى الذهب والفضة خاصة بأفخم الأطعمة وأشهاها ؛ وقبالة المائدة الخلافية سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو ، وقد نثرت عليه الأزهار والرياحين [3] وصفت على حافتيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى البديعة ، وجلس إليه رجال الدولة والعظماء والأكابر من كل ضرب وأكل من شاء دون الزام حتى لا يرغم على الافطار من لا يرى الافطار فى ذلك اليوم ؛ وعند الظهر ينفض المجلس وينصرف الناس

* * *

وأما عيد الأضحى أو عيد النحر كما كانت تؤثر تسميته فى ظل الدولة الفاطمية تنويها بأبرز مظاهره ألا وهى نحر الأضحية ، فقد كان يحتفى به بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو المتبع فى صلاة عيد الفطر ثم يخص بسماط حافل يقام فى أول يوم منه . بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متوالية فى أيامه الثلاثة الأولى ، ويمتاز بالأخص باشتراك الخليفة نفسه فى اجراءات النحر ؛ وكان قيام الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر والمراسيم التى جرت عليها الخلافة الفاطمية فى الأعياد العامة . فلنتصور

(١) راجع خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ٢١٤ الى نهاية المجلد (٢) الخطط — ج ٢ ص ٢٢٣

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٢٠ ، ومن هذا نرى أن تزيين المائدة بالأزهار ليس عادة محدثة وليس بالأخص فكرة أفرنكية

أمير المؤمنين متشحاً بثوب أحمر قان يسير فى موكبه ماشياً إلى دار النحر الخلافية — وقد كانت تقوم فى ركن خارجى من القصر — وبين يديه الوزير وأكابر الدولة والأساتذة المحنكون [1] (وهم المشرفون على شؤون الخاص) ويكون قد اقتيد إلى النحر واحد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة يعلوها الخليفة وحاشيته ، وقد فرشت حافتها بأغطية وبطائن حمر يتقى بها الدم ، وحمل الجزارون كل بيده إناء مبسوطا يتلقى به دم الضحية ؛ ثم تقدم رؤوس الأضاحى إلى الخليفة واحدة فواحدة ، فيدنو منها وبيده حربة يمسك بها من الرأس ، ويمسك القاضى بأسفل سنامها ويحمله فى عنق الدابة فيطعن بها الخليفة ، وتجر من بين يديه حتى يأتى عليها جميعاً ، وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير ؛ وتقدد الضحية الأولى ، وتفرق قطعاً صغيرة فى الأولياء والمعتقدين ؛ وفى اليوم التالى ينظم نفس الموكب إلى المنحر ، وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأساً ؛ وفى اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين ؛ ويجرى توزيع لحم الأضحية خلال هذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم فى أطباق خاصة للتبرك ، ويقوم بالتوزيع قاضى القضاة وداعى الدعاة ، ويخص نقباء الدعوة وطلبة دار الحكمة (دار العلم) بقسط من اللحوم الموزعة ؛ فاذا انقضت مراسيم النحر خلع الخليفة عند العودة إلى القصر على الوزير ثيابه الحمر ومنديلا ملوكياً بغير سمة ، والعقد المنظوم ، فيركب الوزير وعليه الخلع المذكورة فى موكب حافل من القصر شاقا القاهرة حتى باب زويلة ، ثم يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة ، وبذلك تنتهى حفلات النحر

وكان الخليفة العزيز بالله أول من سن سنة إعطاء الضحايا وتفريق لحومها فى أولياء الدولة على قدر مراتبهم ، وكان ما يخرج منها غير ما يذبحه الخليفة بنفسه يبلغ بضعة آلاف من مختلف الأصناف هذا عدا ما يفرق فى أرباب الدولة من الخلع والأموال ؛ وقد انتهت إلينا من روايات المؤرخين المعاصرين تفاصيل دقيقة عن مقادير النفقة فى تلك المواسم ، ومنها أن نفقة مواسم الفطر والأضحى كانت تبلغ زهاء أربعة آلاف دينار ؛ ويذبح من البقر والجواميس والنوق فى أيام النحر نحو ألفين وخمسمائة ، ومن الغنم ألفين وأربعمائة ؛ وقد أشرنا إلى ما كان يوزع فى عيد الفطر على أرباب الدولة من صنوف الفطائر والحلوى ، وكيف كان يسمح للكافة باقتحام إيوان القصر لنهب السماط الخلافى أمام عيني الخليفة ذاته ؛ وعلى الجملة فقد كانت الخلافة الفاطمية تبدى فى المواسم العامة من ضروب البذخ والبهاء والبهجة ، ما يسبغ على هذه المواسم أثوابا ساطعة من الرونق والجمال والسحر

وقد كان هذا البذخ الذى تنثره الخلافة الفاطمية حولها ينفث فى الشعب ذاته حب الظهور والمرح ، فكانت القاهرة تلبس فى تلك المواسم حلة أنيقة باهرة وتحفل شوارعها ومحالها ودورها بأنواع الزينة القشيبة ؛ وكانت فى الليل تبدو كأنها شعلة ساطعة من الأنوار ؛ وكان القصف والمرح يخرجان أحيانا فى تلك المواسم عن حد الاعتدال حتى أن ولاة الأمر لجأوا غير مرة إلى إلغاء بعض الرسوم وتقييد بعض الحريات ؛ وفى عهد الحاكم بأمر الله ألغى الاحتفال ببعض المواسم التى كان القصف يخرج فيها عن حدود الاعتدال مثل عيد الشهيد ، وحرم شرب الخمر والركوب فى الخليج ، وخروج النساء ، واشتد الحاكم فى ذلك حتى كانت القاهرة تغدو أحياناً فى أثواب قاتمة من السكون والاقفار والروع . بيد أنه فيما خلا هذه الفترات القليلة ، كانت الخلافة الفاطمية دائما عند تقاليدها الباهرة تنثر حولها حلل البذخ والبهاء والترف فى كل المواسم والمناسبات

* * *

هذه لمحة سريعة فيما كانت ترتبه الخلافة الفاطمية من الحفلات والرسوم الباذخة لاستقبال العيدين الاسلاميين الرئيسيين ؛ ولم تكن الخلافة الفاطمية أقل بذخا وبهاء فى الاحتفاء بباقى المواسم والأعياد الأخرى كيوم عاشوراء ، ويوم الغدير ، ويوم النيروز ، وعيد الشهيد وغيرها ، فقد كانت تسبغ عليها جميعاً أقصى مظاهر الروعة والفخامة ، وكانت هذه المواسم والأعياد لدى الشعب المصرى أياماً مشهودة تفيض بهجة وحبوراً ؛ وكانت الخلافة الفاطمية ترمى بترتيب هذه الرسوم الباذخة إلى غايتين : الأولى أن تبث هيبتها الدينية بما تسبغه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم ، والثانية أن تغمر الشعب

(١) الاساتذة المحنكون هم جماعة من أكابر موظفى القصر العاطى يتولون أخص شؤون الخليفة ، ومنهم زمام القصر ، وشاد التاج الشريف ، وصاحب بيت المال ، وصاحب الدفتر ، وصاحب الرسالة ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس ، وقد كانوا أكثر الناس اطلاعا على أسرار الخليفة .